العرب
الخميس 2020/08/06
السنة 43 العدد 11781

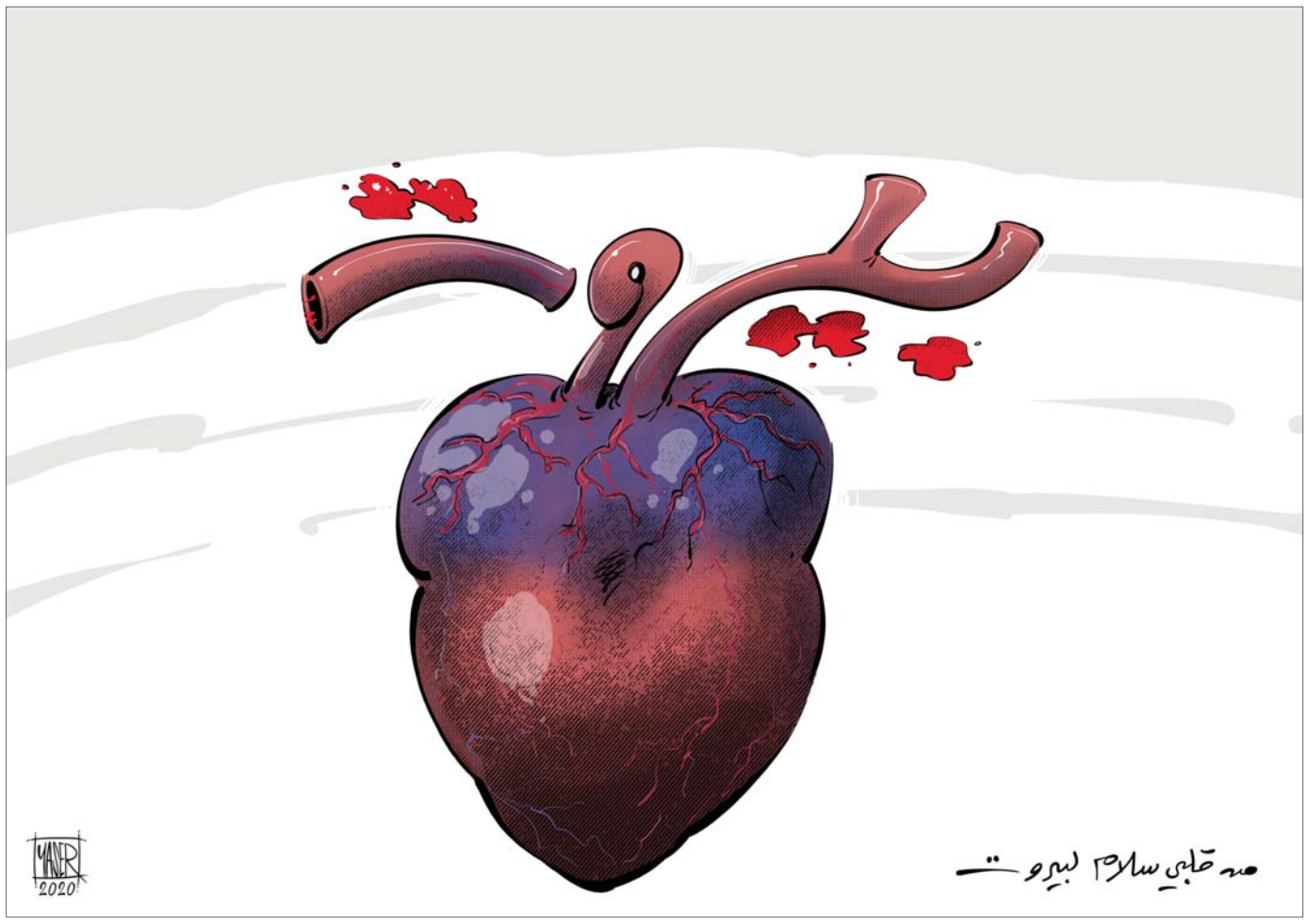

إصلاحيون ومحافظون.. الإيرانيون في قارب مثقوب واحد

عدلي صادق
كاتب وسياسي فلسطيني

في موازاة الضائقة المتفاقمة، التي تمر بها إيران، حددت الإدارة الأميركية شروطها لرفع العقوبات، ومن خلال طبيعة هذه الشروط، يتبدى جلياً أن واشنطن، في عهد إدارة دونالد ترامب، ليست مستعدة لرفع العقوبات وتطبيع علاقاتها مع طهران، ما لم يحدث المستحيل، وهو أن يستجيب النظام الإيراني لشرط أميركي، يفتح المجال للمجتمع المدني الإيراني، لكي "يقرر" تغيير طابع النظام في بلاده، من خلال عملية انتخابية، خاضعة للرقابة الدولية.

بالطبع لن يقبل نظام الملالي الرضوخ لشرط مثل هذا، ما يعني أن الإيرانيين سيخوضون معركة ليّ ذراع مع إدارة ترامب، خلال الأشهر الأربعة المتبقية على الانتخابات الرئاسية الأميركية، ويتوقعون أن يكون الخاسر فيها هو الرئيس ترامب.

كان واضحاً أن إدارة ترامب صاغت شروطها النهائية، بعد ظهور جائحة كورونا في العالم. فقد أصيب أكثر من ربع مليون إيراني وفق البيانات الرسمية، توفي منهم ثلاثة عشر ألفاً. وكانت إيران هي البلد الوحيد في العالم، الذي قرر إبقاء بواباته مفتوحة على الصين، في الأسابيع الأولى لانتشار الفايروس في مدينة ووهان، ما جعل المواطنين الإيرانيين، يرون في هذا الاستثناء، مقامرة بصحتهم، وتركهم عرضة للأمراض والانهيار الاقتصادي.

على الرغم من ذلك، استمر النظام الإيراني في معركته، من أجل البقاء والنجاة من العقوبات الاقتصادية الأميركية والدولية. وبتأثير هذه العقوبات، استمر في السنوات الأخيرة الارتفاع في معدلات التضخم والبطالة، ما دفع المواطنين إلى تظاهرات غضب صاخبة، في شهر نوفمبر الماضي، قُتل خلالها نحو 1500 شخص.

ومما زاد الغضب الشعبي، أن تأثيرات جائحة كوفيد ـ 19 التي أضرت باقتصاديات العالم كله، كان تأثيرها على الاقتصاد الإيراني أفدح، فتسببت في ركود اقتصادي كبير، وفي استمرار حال السقوط الحر للريال الإيراني، الذي فقد ربع قيمته أمام الدولار، وأجهز تقريباً على الطبقة الإيرانية الوسطى، التي فقدت مدخراتها.

في هذه الأثناء، عُلم أن أوساط الحكم الإيرانية، تعتقد أن المرشح الديمقراطي الأميركي جو بايدن، هو الذي سيفوز في الانتخابات المقبلة.

ويرى الزعيم الروحي علي خامنئي الذي تخطى سن الثمانين، أن الأشهر الأربعة المتبقية على الانتخابات، قريبة ويأمل أن يشهد بعدها انتخاب الرئيس الأميركي الديمقراطي، الذي يلغي العقوبات، وربما يعود إلى الاتفاق النووي الإيراني الذي أبرمه الرئيس باراك أوباما. بل إن النظام الإيراني، يرى في الانتخابات الأميركية المقبلة، الفرصة الأخيرة للخلاص من العقوبات.

غير أن الشعب الإيراني، يرى أمراً آخر، وهو أن المشكلات تتناسل، وأن خطوط النزف المستمر للمقدرات الإيرانية متعددة، وأن مشروع النظام الإيراني في المشرق العربي، مكلف ولا طائل منه، لاسيما وأن إسرائيل، التي يتوافق الأميركيون والروس على ضمان أمنها، تقف بالمرصاد للوجود الإيراني في المنطقة، وتتخذ من هذا الموقف الصارم، شيفرا للولوج إلى الفضاء العربي، متجاوزة القضية الفلسطينية.

> تحسساً لعمق المشكلات التي تواجهها طهران اعتمدت الدبلوماسية الإيرانية التي يقودها إصلاحيون سياسة «الابتسامة» في وجه الغرب ولم يعد النظام الإيراني يملك ترف تبادل الاتهامات بين فريقين داخل النظام الواحد

وتحسساً لعمق المشكلات المعقدة التي تواجهها طهران، اعتمدت الدبلوماسية الإيرانية التي يقودها إصلاحيون سياسة "الابتسامة" في وجه الغرب، ونُقل عن وزير الخارجية جواد ظريف الأسبوع الماضي، قوله في حديث جانبي جرى بينه وبين نواب محافظين داخل مجلس الشورى الإيراني "نحن جميعاً، إصلاحيون ومحافظون، في القارب نفسه في نظر الأميركيين". النظام الإيراني لم يعد يملك ترف تبادل الاتهامات والسجال بين فريقين داخل النظام الواحد، والتابعية لمرجع أعلى واحد.

أكد ظريف على هذه الحقيقة، عندما فشلت سياسة التودد مع الغرب، ظهرت علامات الصدود الشعبي عن النظام والغليان الاجتماعي، لذا فإن إسرائيل التي تتابع عن قرب، أو تتشاور مباشرة مع دول في الإقليم، بدأت تحث الرئيس الأميركي دونالد ترامب على إطلاق ما سمّته "مشروع السلام الثاني" وهذه المرة يكون حسب زعمها مع "الشعب الإيراني" تحت عنوان "إعادة الأمل إليه ومساعدته على إحداث تغيير حقيقي في مسار حياته".

في هذا السياق، يتوقع حزب "الليكود" الإسرائيلي تحديداً، أن تقدم إدارة ترامب للنظام الإيراني، خلال الأشهر المتبقية على الانتخابات، صفقة بصيغة "خذها كلها أو أتركها كلها" تُطالب بموجبها الولايات المتحدة طهران، بإلغاء البرنامج النووي والصاروخي، ووقف تدخل الحرس الثوري الإيراني في الدول الأجنبية، ووقف تمويل ما تصفه بـ"المنظمات الإرهابية"، وبعدئذٍ أن تُجري إيران استفتاءً بإشراف دولي، بشأن مستقبل النظام، ومقابل ذلك، تلغي الولايات المتحدة العقوبات الاقتصادية، وتساعد مع الغرب والمنظمات الدولية على إعادة بناء الاقتصاد الإيراني.

وبالطبع، سيرفض علي خامنئي وسائر رجال الحكم الإيراني، إصلاحيين ومعتدلين، مثل هذه الصفقة التي من شأنها إنهاء نظامهم، تماماً مثلما رفض الفلسطينيون والعرب صفقة ترامب "الأولى" التي من شأنها إنهاء القضية الفلسطينية وتكريس حال الصراع وفقدان السلام.

ويعرف الإسرائيليون والأميركيون، أن الإيرانيين لن يقبلوا نقاش هذه الصفقة أو استلام ورقة بخصوصها، لكنهم في تل أبيب وواشنطن، يريدون الاستفادة الدعائية منها وتطييرها وكأنها خطة إنقاذ للشعب الإيراني.

رهان الإدارة الأميركية وحكومة إسرائيل على الشعب الإيراني، يفترض أن معظم الإيرانيين غير معنيّ بالبرنامج النووي، ولا بالبرنامج الصاروخي، ولا يبالون بانفجارات تحدث في مواقع الحرس الثوري، بل إن هؤلاء الإيرانيين ـ حسب هذا الافتراض ـ سيشعرون بالأمل في حال وجدوا دعما لهم من الغرب. وبناءً على هذه التقديرات، يرى الإسرائيليون أن الفرصة سانحة لإسقاط النظام الإيراني و"لا ينبغي تضييعها" بالتلكؤ وعدم بذل الجهود الحثيثة.

العرض الذي تطالب إسرائيل الولايات المتحدة بتقديمه للإيرانيين، هو نوع من ألعاب العلاقات العامة، لإيهام خصوم إيران في المنطقة، بأن تل أبيب وواشنطن، تعملان لصالحهم. أما الإيرانيون، فإنهم ينتظرون جو بايدن، وسقوط دونالد ترامب، وتوقعاتهم في هذا الشأن، تُعتبر بمثابة تمنيات متطابقة مع دول عدة في الغرب والشرق.

الله خارج معادلة الديمقراطية

سعد القرش
روائي مصري

بسم الله أفتتح المقال بما يمكن أن يصلح استنتاجا يلخّصه عنوان "الله خارج معادلة الديمقراطية"، وباسم الديمقراطية يرتكب أعداؤها خطايا يختلط فيها الديني بالدنيوي، وفي هذا الاختلاط يطغى تديُّن يجعل علاقة الإسلاميين بالديمقراطية إيمانا أول النهار، وكفرا في آخره، فهي سلّم للصعود، وسيلة للتمكين، ثم يتنكّرون لها. وتلتبس علاقتهم بهذا الإجراء المعقد، غير المقتصر على محدودية صندوق التصويت، فيرفعون قميص عثمان مطالبين بالحرية التي تعني حريتهم في مصادرة حريات الآخرين؛ ففي عقيدتهم أن حريتهم تجسيد للإرادة الإلهية المانعة لحريات الآخرين، ويتراوح وصفهم بين الزنادقة والملحدين وأتباع الطاغوت والإباحيين والأنجاس، وأشياء أخرى لا يسمح المقام بقولها أو نشرها.

لم تفشل ثورة الـ25 من يناير 2011 تماما. تعثّرت مرتين، وتعاني حاليا كبوتها الثانية، ولكنها نجحت في استنبات الوعي الكافي لنجاحها ولو بعد حين، وقد نجحت في تسمية الأشياء بأسمائها، ونزعت القداسة عن شخصيات ومؤسسات دينية وعسكرية كان الاقتراب منها محظورا. في الفورة الثورية الأولى أسفر السعار على الحكم عن مواقف لم يكن التثبت منها يحتاج إلى أقل من ثورة. أولها رد فعل جماعة الإخوان على حرية أراد أحد كوادرها أن يمارسها، إذ أبدى عبدالمنعم أبوالفتوح عضو مكتب الإرشاد رغبته في الترشح لرئاسة الجمهورية، ورأى أنه مؤهل للمنصب المدني. وكانت الجماعة، في طور التقية السياسية، ترفض تقديم مرشح للرئاسة. ولم يتأخر رد المرشد محمد بديع فقال إن الرجل "نقض عهده مع الله".

لم يتواضع المرشد فيقول إن الرجل نقض عهده مع الإخوان، وخالف ما اتفقت عليه الجماعة. وإنما ساوى بين الله وتنظيم خلط عملا صالحا وآخر سيئا، ويتحدث باسم الله، ويفرض سطوته السياسية ولو على أعضائه البارزين. وبعد انتهاء التقية، كرر بديع "المصطلح"، في مدينة المحلة الكبرى في الـ1 من مايو 2012، في مؤتمر انتخابي لمحمد مرسي مرشح الإخوان، قائلا إن مرسي "لم ينقض عهده مع الله.. بينما غيره نقض عهده، ولم يف بوعده"، في إشارة إلى أبوالفتوح.

الانتخابات إجراء مدني يتيح لكل مواطن، أيّا كانت مكانته، صوتا واحدا. عدالة ومساواة مطلقة اكتسبها البشر بعد نضال دام ومرير، ولا علاقة لله بهذا الإجراء البشري. ولكن المرشد يرسّخ لأتباعه يقينا بأن ما للبشر من أفعال، يخطئون فيها ويصيبون، هو أمر إلهي يخضع لثنائية الحلال والحرام، ولا تجوز مخالفته، ولا يصح معه الاجتهاد بإعلان الرغبة في الترشح قبل موافقة الجماعة حارسة العهد مع الله. لم يكن القول زلة لسان في حالتيْ التقية ثم الخروج إلى النور، وإنما أبداه المرشد في مارس 2013 في مطعم "تشيليز" بأحد المتاجر القاهرية. قال له شاب إن أيام الإخوان في الحكم معدودة، وإن المطعم أميركي، فهل تشجعونه ليطول بقاؤكم في الحكم؟ لزم المرشد الهدوء، وكان هذا سلوكا راقيا يليق بوقار شيخ مسنّ يترفع عن الاستجابة لاستفزاز الشاب، لولا أنه قال "الله كلفني ألاّ أرد على أمثالك".

زاوية الرؤية لأردوغان، أيا كانت صولاته، تؤكد أن أفئدة الإخوان تهوي إلى أنقرة أكثر من البيت الحرام، وأنهم جنود في المشروع التركي، ويسخّرون إمكاناتهم لمساندة طموحات أردوغان في سوريا وليبيا، في إجماع مهين للعقل، تبطل معه محاولة التساؤل "أليس منكم رجل رشيد؟"، شخص واحد فقط يخرج عن هذا الاصطفاف المؤيد لأردوغان في احتلاله لشمالي سوريا، وغزو لمنطقة عفرين في يناير 2018، ثم إعلانه في الـ21 من يوليو 2020 بأن جيشه سيبقى في سوريا حتى ينعم شعبها بالحرية، متماهيا مع صلف جورج بوش في تسويغه الغزو الأميركي للعراق عام 2003.

وإذا انسحب أردوغان غدا من سوريا واستدعى مرتزقته المحمولين من سوريا إلى ليبيا لدعم نظامها الإخواني، فلن يعتذر أيّ من مؤيديه عن بيعة الغزو، وسيجمعون على الإشادة بحكمته، في جنوحه إلى السلم، بالطريقة نفسها التي جعلوا بها الاحتلال العسكري الدامي فتحا مبينا. النبي نفسه لم يحظ بهذا الإجماع في المهام العسكرية، وكان يسأل الصحابة فيشيرون عليه بآراء تخالف ما انتواه، وتتغير الخطط. في غزوة بدر نادى "أشيروا علي أيها الناس"، ونجحت خطة منع المشركين من الوصول إلى الماء، ثم خالفه صحابة في كيفية التعامل مع الأسرى، واستجاب إلى أن نزلت آية "ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض". وفي غزوة الأحزاب وافق على ما أشار به سلمان الفارسي من حفر الخندق؛ لحماية المدينة. فكيف ارتقى أردوغان إلى ما فوق مقام النبوة؟

> يمكن لباحث في الطب النفسي أن يرصد إجماعا مهينا على قداسة أردوغان وعدم نطقه عن الهوى وتتسع له خارطة مرنة تشمل تعليقات وآراء وسبابا وتحريضا من العاملين في فضائيات وصحف ومواقع عربية

في عام 2014 كان يوسف القرضاوي في الثامنة والثمانين، وكان رئيسا لكيان اسمه الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين. هذا العجوز الماكر أنزل الله لكي يشارك في تنافس بشري في الانتخابات الرئاسية التركية، وقال إن أردوغان سيفوز؛ "لأن الله معه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير".

يمكن لباحث في الطب النفسي، وليته يكون غير عربي، أن يرصد إجماعا مهينا على قداسة أردوغان، وعدم نطقه عن الهوى، وتتسع له خارطة مرنة تشمل تعليقات وآراء وسبابا وتحريضا من العاملين في فضائيات وصحف ومواقع عربية، ناطقة تمويلا ولغة بالعربية لا التركية، لكي يجد تفسيرا لعدوى الأردوغانية لدى قطيع من الهتّيفة، لا يشذ عنه "رجل رشيد" منحه الله فضيلة القلق والشك، فيدرك أن الاجتهاد البشري يخضع لنسبية الصواب والخطأ، لا لحرفية الحلال والحرام، انطلاقا من يقين ديني جاهز.

ستكون أمام هذا الباحث الأجنبي مهمة أكبر من إبداء جنود الجيش "العربي" الأردوغاني وضباطه لآرائهم؛ فلا حظر على رأي، وإنما على هذا التجنيد الطوعي للهجوم الهستيري على الرئيس التونسي قيس سعيد حين اكتشفوا أنه عصيّ على التطويع الإخواني. ولا يقل هجومهم عنفا على من يسخر من أردوغان، أو من سيف علي أرباش وزير الشؤون الدينية التركي على منبر آيا صوفيا. يعتبرون الرأي في مسؤول طعنا في الدين، وهم لا يكفون عن انتقاد شيخ الأزهر أحمد الطيب، ويسخرون منه في فضائياتهم، والرجل مسالم، لا في يده سيف ولا تحت منه "أرباش".